



حوار حول الثقافة المتولدة عن ثورات الربيع العربي

الصراع الدامي الذي فرضه واقع الربيع العربي بين أقطاب السلطة وأقطاب الحرية تصاعد في الفترة الأخيرة حتى وصل إلى حد لا تستطيع أعراف وقوانين البث الإعلامي مواكبه. وأعتقد أن كمية الدماء المسالة سوف تفرض أجندتها على الواقع المعاش شاء من شاء وأبى من أبى.

وما يخشاه المواطن البسيط هو ضياع بوصلته التي خرج مسترشدا بها يطالب بأبسط حقوقه؛ في الوقت الذي تفاقمت مأساته حتى ضاعت فيها جميع أحلامه؛ وتاه هو ما بين الفعل وردة الفعل بعد ما حرمه مفرمة الثورة أبسط مقومات معيشته.

وتحول كثير من مناصري الحرية ومناصري السلطة إلى وحوش بريبرية تعمل ضمن غريزة الانتقام، بعدما طعمت بجرعات القتل والدماء المتتصاعد، حتى أصبحنا نرى رؤوس تنشر في الشوارع وأجسادا تسحل في الطرقات؛ ومجازر ترتكب بحق أطفال لم يعلموا لماذا وكيف أصبحوا أداة انتقام.

بغض النظر على من فرض هذه السياسة فهذا الكم من العنف لا يمكن إيقافه باستخدام كل جيوش الأنظمة العسكرية لأن التغيير حدث على مستوى الوعي الجمعي وترك اثره على البنية المجتمعية.

وأصبحت تصرفاتهم الاعتيادية مطابقة لتفسيرهم للآية الكريمة: (إِنَّمَا لَقِيْتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرَبَ الرَّقَابَ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشَدُوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ حَتَّى تَضَعُ الْحَرَبُ أَوْ زَارَهَا ذَلِكُوا لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَأَنْتَصِرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لَيَلِو بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضْلَلُ أَعْمَالَهُمْ) (4 - محمد).

بعدما صدرت فتاوى التكفير ليس للطغمة الحاكمة فقط وإنما فيما بينهم أيضا.

المؤسف أنه في ظل المعادلات الإقليمية والدولية الجديدة الكل يعلم أنه من غير الممكن سحق القوى المقاومة، أو القضاء على الطغمة الحاكمة، لأن جميع الأطراف الداعمة سواء لهذا الفريق أو ذاك لن تخلي بسهولة عن أهدافها المعلنة أو المستترة، وستستمر في دعم حليفها خوفاً على ضياع مصالحها الأيديولوجية والسياسية.

الحرك الثوري سيستمر؛ لكن المعاناة سوف تطول؛ والعمل العسكري ضد هذا الحراك هو عبارة عن مكابح منتصف الطريق ولن تشكل النهاية.

والمهم في نهاية الطريق أن تتنزع القوى الثورية نظام حكم يستجيب لمتطلبات المرحلة، يتضمن إشراك الجميع في صنع مستقبلهم السياسي والاقتصادي والثقافي وهذا المطلب هو مطلب وجودي للشعوب.

ربما المواجهات الدموية الحالية هي نتاج الكبت الطويل والرفض المطلق للعودة إلى نظام الاستبداد؛ مهما كانت الأثمان، ولن تتمكن هذه الطغمة الحاكمة ومن يساندها إعادة عقارب الساعة إلى الوراء.

لكن المطلوب اليوم أن لا تفقد الثورة بعد الأخلاقي؛ وأن لا يتغلب التطرف الديني على العمل الثوري، وهذه مهمة الشريحة المثقفة من السوريين من جميع الطوائف والملل.

نحن ندرك أن الثورة فقدتنا نخبة واسعة من خيرة الشباب، لكننا ندرك في المقابل أنها أزالت عننا شريحة واسعة من شرذمة الطغمة الحاكمة.

وبالتالي أصبح من أولويات العمل الثوري التوجه نحو النشاء الجديد من جيل الثورة واستيعابه ضمن تشكيارات المجتمع المدني ذات الاهتمامات الثقافية والتعليمية والأخلاقية والخدمة والجمعيات الاحترافية والتنظيمية لتأمين ولادة طبيعية للدولة الجديدة تكون قادرة على القيام بالأعباء الكثيرة التي تنتظرها.

وعدم الاعتماد كلياً على مبادرات سلطة أو معارضة أو مجتمع دولي.

من المؤكد أن الطغمة الحاكمة إلى زوال، لأنها لم تعد تمتلك مقومات القمع والبطش السياسي والاقتصادي والأمني، إضافة إلى أن الثورة استهلكت فائض القوة لدى هذه الطغمة؛ واستنفدت فائض المال التي تملّكه الدول الداعمة؛ والتي استخدمته في العقود الماضية لتكرّيس سيطرت هذه العصابات على الشعوب.

وكما قال الدكتور علي صافي: الحرية قادمة، شاء من شاء وأبى من أبى.

والسؤال المهم: هل سيتمكن المثقفين والناشطين من تنظيم فضاء الحرية المتولد وفرض وجودهم على المؤسسات السلطوية، أم أن المنطقة العربية مقبلة على فترة من الفوضى والتجاذبات؟ قبل أن يتحقق ذلك.

وجواب ذلك أننا اليوم نعيش حالة الفوضى والتجاذب ربما تطول أو تقصر ويجب العمل على تقصير مدتها، أما مشيئة الله فهي في قوله تعالى: (أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْرَيْهَا بِقَدْرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زِيدًا رَابِيًّا وَمَمَا يُوقَدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حَلْيَةً أَوْ مَتَاعًا زَيْدٌ مِثْلُهِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقُّ وَالْبَاطِلُ فَأَمَّا الزَّيْدُ فَيُذَهِّبُ جَفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيُمْكِثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ) (17-الرعد)